الإبداع في الفكر المصري القديم

د. جوهر بلحنافي(*)

مقدمة

في الوقت الذي كانت فيه أوروبا لاتزال في مهدها كانت حضارة الشرق خاصة في مصر القديمة وفي بلاد فارس وبابل والصين تقدم للبشرية الأسس التي يقوم عليها التفكير الإنساني بشكل عام والعلم بشكل خاص، فقد بنى الفراعنة مصر الأهرام وفق أسس هندسية وميكانيكية دقيقة، وكان الطب المصري قد وصل إلى أسرار الكثير من الأمراض، وكانت الصيدلة والفيزياء وعلم الحساب قد وصل إلى درجة كبيرة من التقدم والرقي كذلك كان العلم في بابل والصين قد خطا خطوات كبيرة وقدم العديد من الانجازات. فهذا على مستوى العلوم فإلى جانب هذه النهضة العلمية إن صح التعبير التي شهدتها الحضارة الشرقية فقد كان لمنجزاتها السياسية والاجتماعية تأثيرا كبيرا على الفكر اليوناني ومنجزاته فإن كان قد مثل هذا لصورة العلمية الدقيقة، فإن ذلك كان مسبوقا بمقدمات وجدت في حكمة الشرق التي نهل منها والتي تمثلت في تراث مصر والهند والصين... وخاصة في مجال الأخلاق والسياسة والعدالة والحق التي مثلت من أهم القضايا التي عني بها الفكر الشرقي والمصري خاصة من أجل تشييد نظام اجتماعي وسياسي عادل وهذا ما تجسد عند **بتاح حوتب**، **اخناتون**...

وهكذا كانت الحضارات تتمازج وتتلاحم فترقى وتزدهر أو تنعزل وتتقوقع فيصيبها التكلس والاضمحلال ولم يكن الأوربيون دائما هم المتقدمون المانحون، بل كانوا طرفا من المعادلة يتبادل طرفاها الأخذ والعطاء، وكانت حضارة الشرق تمثل منطلق الإبداع الذي لم يسبقه نقل على خلاف الفكر اليوناني.

(*) أستاذة محاضرة، جامعة معسكر- الجزائر belhanafi. djouher@live. fr.

من إبداع إلى اتباع في الفكر الشرقي (المصري القديم)

إن أهم مميزات الفكر الشرقي امتزاج ما هو ديني بما دنيوي، بحيث لايوجد فكر سياسي مستقل بذاته. إذ جاء الفكر السياسي مدمجا مع النتاجات الفكرية الأخرى كالتربوي أو الأخلاقي أو قانوني. بحيث ارتبطت السياسة بالأخلاق وهذا من خلال دراسة النوازع النفسية للفرد و، لمحاولة إيجاد نظام اجتماعي وسياسي عادل قائم على المحبة والإخاء والاحترام بين الأفراد فربط الفضيلة بالسياسة غايته هي التطلع لتحقيق السلام في مجتمع يتساوى فيه جميع الأفراد. وهذا ما تجسد في فكر بتاح حوتب وأخناتون والفكر الصيني عند كونفشيوس والبابلي عند حمو رابي والبوذي.

١ ـ الفكر المصري القديم:

تعتبر فكرة الخلود أهم الأفكار الفلسفية في الحضارة المصرية القديمة فلقد تأمل الإنسان المصري ظاهرة الموت، وحاول أن يجد لها حلا فبعد أن سيطر على مقدرات الطبيعية وسخرها لخدمته وجد أن كل ما حوله يموت وأراد إن يفلسف هذه الظاهرة فكان أن أمن بأن الموت يعقبه البعث. وأن للإنسان حياة أخرى بعد هذه الحياة التي يعيشها على هذه الأرض، وكان أبرز ضرورة هذه الحياة الأخرى تبريرا أخلاقيا على أساس أن أفعال الإنسان في هذه الحياة الدنيا بما فيها من خير وشر لابد أن يثاب على الخير و يعاقب على ما فعله من شرور فكان الإيمان بالخلود والحياة الأخرى هو الدافع للإنسان لفعل الخير والابتعاد عن ارتكاب الشر والآثام.

كما اعتقد الإنسان المصري بفكرة انفصال النفس عن الجسم وبأن الموت هي للجسم فقط، أما النفس فستبحث عن جسد بعد الموت، وحيثما تعثر عليه تبدأ حياة أخرى للإنسان، ومن هنا كانت محاولات المصريين بالتحنيط لإبقاء الجسد على طبيعته والاهتمام بفن تصميمات هندسية لأبنية ضخمة في غاية من الدقة لتحافظ على جسد الإله فرعون. وكانت لهذه الفكرة أهميتها في الفكر اليوناني خاصة عند فيثاغوراس وأفلاطون «فصل النفس عن الجسم وهو مقبرة لها»

وقد ارتبطت بهذه الأفكار الميتافيزيقية فلسفة أخلاقية عمادها ضرورة أن يتصرف الإنسان وفقًا للعدالة والنظام فلا يظلم نفسه ولا يظلم غيره.

٣ـ مصر الفرعونية وتنظيرها للعدالة:

لقد أعطى المصريون الأوائل أهمية للضمير الأخلاقي وربطه بالعدالة «التصرف وفقا للعدالة» والنظام وقد عبروا عنها باللغة المصرية القديمة بكلمة (ماعت Maat) «تدل كلمة ماعت على «قضيب مستقيم» يستخدم للحفاظ على استقامة الأشياء ثم بعد ذلك باتت هذه الكلمة تعني مسطرة تستخدم مع الحجارة وبعدها راحت تستخدم بشكل مجازي لتدل على قاعدة أو قانون أو لائحة أو شريعة يحافظ بواسطتها البشر على جعل حياتهم وأفعالهم مستقيمة ومحكومة.»[١]

وتدل «ماعت» على آلهة مختصة بإحقاق العدل في الأرض أو في السماء فالربة «ماعت» هي تجسيد المادي والمعنوي للقانون والنظام والحق، وكانت تسمى بتسميات عديدة مثل «ابنة راع» و«سيدة السماء» و«ملكة الأرض» و«ربة العالم السفلي» وأخيرا «سيدة الآلهة والربات»[٢].

وكانت «ماعت» «زوجة الإله تحوت» «إله الصدق» وهو «منقذ القوانين» «إله القانون»[٣].

استخدمت هذه الكلمة في أول الأمر لأداء معنى واحد فقط هو الحق بمعنى» الصواب» وأخذ معنى ماعت يتسع تدريجيا حتى صار يشمل معنى أوسع فلم تكن تعني نقيض «الباطل» بل تعني نقيض الأخطاء الخلقية على وجه العموم.[٤]

كما صارت تعبر في نظر رجال الفكر في الدولة القديمة عن معنى النظام القومي أي النظام الخلقي للدولة.

وقد عبر عنها «بتاح حوتب» بقوله: «إن ماعت عظيمة وتصرفها باق فلم تخذل من زمن من بارئها»[٥].

---

(١) عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص ٢٤٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٩.

(٤) محمود سعيد، أحمد أمين، محمد علي القوزمي، النظم السياسية عبر العصور، دار النهضة العربية بيروت ط١، ١٩٩٩، ص٥٨.

(٥) محمود سعيد، أحمد أمين، محمد علي القوزمي، النظم السياسية عبر العصور، ص٥١.

صارت العدالة تمثل روح النظام للإرشاد القومي والإشراف على شؤون البشر «الرعية» بحيث أن الإدارة المنظمة مفعمة بالشعور الأخلاقي «الفضيلة». وأصبح تأثيرها واضحا في واجبات الحكومة نحو عامة الأفراد الشعب دون تحيز لأسرة الحاكم.

ومن أفضل الوثائق التي عبرت عن هذه الآراء ما يعرف باسم «قصة القروي الفصيح» والتي كتبت خلال عصر الثورة الاجتماعية الأولى في عهد الملك «ثب، كاوو، رع» أحد ملوك أهناسيا في عهد الأسرة العاشرة، وهي تمثل رفض الإنسان للظلم وضرورة تحقيق العدل[١].

ومن خلال هذه النصوص وللخطابات المختلفة التي كانت توجه للوزير يوم تكليفه بالوزارة التي نقشت في ثلاث مقابر لكبار وزراء الأسرة الثامنة عشر. وأكمل هذه النصوص هي التي نقشت في مقبرة «دخمى» على لسان فرعون تحونتمس الثالث، وجاء في خطابه هذا «لا تنسى أن تحكم بالعدل».

اعلم أن الأمير يعمل بذلك سيستمر هنا في هذا المكان ولا تغضبن على رجل لم تتحر الصواب في أمره بل اغضب على من يجب الغضب عليه «انظر في القانون الملقى على عاتقك تنفيذه» [٢].

فالعدالة تكمن في عدم التحيز والمساواة بين الناس دون تمييز بين الأفراد كانت العدالة مفهوما أخلاقيا، لأن فرعون عندما يطيع العدالة يطيع مبادئ الأخلاق، وهكذا تلتقي السياسة والأخلاق في مفهوم واحد[٣].

إذ قامت «ماعت» على القيم الأخلاقية ومفاهيم العدالة في تاريخ مصر القديم اعتمدت على مبدأ أساسي وهام هو مساواة الجميع دون النظر إلى فئاتهم أو طبقاتهم فقد كانت النظرة الدينية والقانونية نسيطر على فكرة المساواة ويتضح هذا من خلال هذا النص «لقد خلقت الرياح الأربعة ليتنفس بها الإنسان مثل أخيه الإنسان مدة حياته ولقد خلقت المياه العظيمة ليستعملها الفقير مثل السيد.

(١) المرجع نفسه، ص ٥١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٦٥.
(٣) إمام عبد الفتاح، الأخلاق والسياسة(دراسة في فلسفة الحكم)، المجلس الأعلى للثقافة، مصر(د، ط)٢٠٠١ ص١٣٨.

لقـد خلقت لكـل رجل مثل أخيه، وحرمـت عليهم إتيان السوء، ولكـن قلوبهم هي التي تكتـب مـا قالته لقـد جعلت قلوبهـم لا تغفل عـن الغرب «المـوت» ليقربـوا القوانين للآلهة المحلية»[١].

ويظهـر هذا النص فكـرة المساواة بين جميع الناس في الحقوق وانعـدام التميز أو الفوارق الاجتماعية. بحيث يتماثل الفقير والغني في التركيب البيولوجي.

وبهذا يتجلى البعد الاجتماعي «للماعت» إذ تعطي النصوص المصرية القديمة بعد التضامن الفاعـل والايجابي بين الفـرد والجماعة حيث تقوم «الماعت» برص الأفـراد في جماعة متضامنة وساعية باتجاه إيجابي فيها تنتفي الفوضى والقتال.

فقـراءة الماعت الفلسفية هي أقرب ما تكون إلى الصـيرورة التي تبدأ من الوجود والعدم وتصل إلى أرقى وأعقد أشكال الحياة والفكر مخترقة كل عمليات الجدل بين الأشياء[٢].

إن الماعـت هـي القـوة الكونية الملازمة لحيـاة الكون على شـكل مسيرة ذات نظـام وغاية وهدف، وأن هذه القوة نزلت الكون في صلب الظواهر التي لفت العالم وهو يستمر في الحياة.

إن كـل هذه تفرض وجود الدولة كنظام تسيره الماعت ويسعى لتحقيق الماعت في الوقت نفسه، أي أن العالم لا ينظم نفسه بنفسه بل يحتاج إلى ملك ودولة لكي ينتظم، فإن العالم يسوده نظام كل شيء بمجرد تطبيقها.

لقـد جعل العقل المـصري القديم «ماعت» هي المحدد الأول للوظيفة السياسـية لفرعون وان كان إلها وحاكما فهو يخضع لقدسـية «ماعت» فهو يخضع لقدسـية «ماعت» الذي يقابل «التو-Tao» في الحضارة الصينية و«اللوجوس-Logos» في الحضارة الهيلينية.

الفكـر الأخلاقي عند بتاح حوتب:

لقـد قدم بتاح حوتب أول وأشـهر تعاليـم أخلاقية مكتوبة في عـصر الدولة القديمة، لقد كـان يعمل كبـير للوزراء في عصر الملك أسـبسي من ملـوك أسرة الخامسة، عـاش ما بين عام (٢٧٠٠ ق.م و ٢٥٠٠ ق.م).

(١) محمود سعيد، أحمد أمين، سليم محمد علي القوزمي، المرجع السابق ص ٢٥١.
(٢) المرجع السابق، ص٢٦٦.

تمثل تعاليم بتاح حوتب أقدم صورة للحكمة المصرية القديمة قبل كونفشيوس وسقراط، وبوذا، حيث نقاس المشاكل الأخلاقية، مشاكل الخير والشر مطبقة على الحياة الاجتماعية، وكذا البحث في الصواب والخطأ ومطابقته على السلوك البشري.

«أعتزل بتاح حوتب منصبه، وقرر أن يترك لولده كتابا يحتوي على الحكمة الخالدة، إذ كرس نفسه في آخر حياته لتعليم الأطفال لاعتقاده أنه وريث الحكمة على الأرض»(١). حيث قال: «إن كل طفل في بدء تطوره ليس إلا حيوانا أعجم تقريبا، ونتيجة المترتبة على ذلك أنه إذا أهملت العصا فسد الطفل، فيجب أن يتعلم الصغير كيف يطيع السوط تماما كالحصان الجموح، لكن بالإضافة إلى العقاب، فالطفل في حاجة إلى النصح، فعليه أن يتعلم النظرة الفلسفية للحياة»(٢).

إن بتاح حوتب يعتبر أن العقاب الجسدي هو وسيلة لتعلم الفضيلة لكن إلى جانب العقاب والألم لابد من تعليمه الحكمة.

آراء بتاح حوتب في المعرفة والفضيلة «علاقة المعرفة بالقيم الأخلاقية»

لقد اكتشفت لهذا المفكر ثلاثة وأربعون لوحة ترجمت وأطلق عليها المؤرخون «مخطوط الحكمة» وقد رسم فيها بتاح حوتب صورة الإنسان الحكيم الذي تعلم الفضيلة وخاصة فضيلة ضبط النفس التي أصبحت أهم مقومات الفكر الأخلاقي اليوناني عند سقراط وأفلاطون حيث يقول بتاح حوتب لابنه: «إتبع لبك أي عقلك مادمت حيا»(٣) فالفضيلة عنده لا تكون إلا إذا أعمل الإنسان عقله في كل سلوك يسلكه إذ أنه ربط بين المعرفة والفضيلة بحيث يبدأ بتاح حوتب كتابه بنصح ابنه بالتواضع وعدم التعالي على الناس بسبب المعرفة فيقول له: «لا تكن متكبرا بسبب معرفتك ولاتثق بأنك رجل عالم فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها، وليس هناك عالم يسيطر

(١) حربي عباس عطيتومحمود، الفلسفة القديمة من الفكر الشرقي إلى الفلسفة اليونانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د. ط، ١٩٩٩، ص ١٩.

(٢) حربي عباس عطيتومحمود، المرجع نفسه، ص ١٩.

(٣) مصطفى النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي ج١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د، ط)، ١٩٩٨، ص ٣٧.

عـلى فنه تمامـا». وأن الكلام الحسن أكثر اختفاء من الحجر الأخضر الكريم ومع ذلك فإننا نجده مع الإماء اللائي على أحجار الطواحين».[١]

في هـذا النـص يوضح بتاح حوتب علاقة العلم بالفضيلة ذلك أن المعرفة تنبني على أسـاس الأخلاق وخاصة التواضع الذي يعتبره أسـاس المعرفة بحيث أن الإنسان كلما ازداد علما ازداد تواضعـا، فطريـق العلم والمعرفة لا يعرف حد أو نهاية يمكـن أن يتوقف عندها، كما لا يمكن الجـزم بـأن هناك عالم بميـدان ما قد اكتملـت معرفته فيه فلا بـد أنه يعـرف أن هناك نقائص وثغرات بعلمه وأنه لم يبلغ الكمال بعد.

كـما ينصح ابنـه بالبحث عن الحكمة عنـد أي إنسان كيفما كان حكيـما أو جاهلا لهذا فهو يطالبه بمشاورة جاهلا دون الاستهانة بأحد.

كما يركز على ضرورة استخدام العقل والنظر والتأمل في كل ما يسمع فيقول: «أن المستمع هو الذي يحبه الإله، أما الذي لا يستمع فإنه هو الذي يبغضه الإله والعقل»[٢]. (وحسب النص الأصلي القلب بمعنى العقل والفهم).

لكن الدعوة إلى اسـتخدام العقل عند بتاح حوتـب لم تتضمن خاصية التفلسف أو التأمل الـذي يحقق لصاحبـه الحكمة و إنما كان دائمـا التأكيد على ضرورة احـترام الآخرين والتزام بنصائـح الأب، كما كان لبتاح حوتب اهتمام كبير بالخطابة والجدل، لذا فقد أوصى ابنه كيف يتعامل مع الخطباء فقال: «إذا وجدت خطيبا في زمانك سـليم العقل أمهر منك فأثق له ذراعك واحـني له ظهرك، أما إذا تكلم هجرا فلا تقصرن حينئذ في مقاومته حتى ينادى به الناس، أنت إنسـان جاهل، ولكـن إذا كان متماثلا لك فاظهر بصمتك أنك أحسـن منه إذا أخطأ في الكلام وعندئذ سيمدحه السامعون ولكن صمتك سيعتبر حسنا بين العظماء، أما إذا كان شخصا حقيرا ندا لك فلا تغضبن عليه لأنك تعلم أنه تعس. .. احتقره وبذلك يؤنب نفسه، وأنه لقبيح أن يضر الإنسان شخصا محتقرا»[٣].

وفي هذا فهو يعلم ابنه آداب التنافس بين الخطباء وما ينبغي أن يحكمها من قواعد، بحيث

(١) مصطفى النشار، الفكر الفلسفي في مصر القديمة، الدار المصرية السعودية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧، ص ٥٧.
(٢) مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص ٥٧.
(٣) مصطفى النشار، الفكر الفلسفي في مصر القديمة، ص٦٠.

يجب أن يحكمها أولا الاحترام وخاصة احترام من يتميز بالبراعة، لكن إن استخدمت هذه البراعة في الهجاء أو في غير موضعها فلا بد من الرد عليها حتى يبرز للناس جهله، لكن أن حكمتها التماثل في هذه القدرة الخطابية، فالتزام الصمت أفضل من الوقوع في الخطأ كما ينصحه بعدم الاهتمام بالخطيب الحقير.

علاقة الأخلاق بالسياسة في نظر بتاح حوتب

طالب ابنه بضرورة التحلي بالأخلاق الفاضلة والتأكيد على أهمية الأسرة ومتانة العلاقات الاجتماعية لأن الحياة الاجتماعية الصالحة والحكم السياسي الصائب مبني على صلاح الأسرة وعلى مقومات خلقية أخرى إذ يقول: «لا تكونن شرهاً في القسمة، وانبذ الطمع حتى في حقك ولا تطمعن في مال أقاربك، فإن الالتماس اللين يجدي أكثر من القوة... و إن القليل الذي يؤخذ بالخداع يولد العداوة حتى عند الحليم.[١]. «و إذا أردت أن يكون خلقك محمودا، وأن تحرر نفسك من كل قبيح، فاحذر الشراهة، فإنها مرض عضال لا يجري شفاؤه، والصداقة معها مستحيلة لأنها تجعل الصدق العذاب مرا»[٢].

كما يوصي ابنه بالتزام بالقيم الأخلاقية وضرورة تحقيق العدالة في حالة ما إن نال منصب حكم حيث يقول: «إذا كنت ذا سلطان فاسع لأن تنال الشرف عن طريق العلم ورقة الطباع... وأحذر أن تقاطع الناس، وأن تجيب عن الأقوال بحرارة، ابعد ذلك عنك وسيطر على نفسك»[٣]. و يقول أيضا: «ولتكن أعمالك في مناسباتها وكلماتك في موضعها، فالرجل العاقل لا يتحدث بتاتا في أمور لا يعرف عنها شيئا ودعني مرة أخرى أحذرك، أكبح جماح نفسك والجم لسانك»[٤]. إن الصمت حكمة لذا فهو يدعو ابنه تجنب الاندفاع والتهور، وان اتخاذ أي قرار لابد أن يكون إلا بمعرفة الكلمات التي سيصدرها، إضافة إلى تجنب السلوكات الفاسدة من طمع وغدر ونفاق وكراهية وحسد اتجاه من يتعامل معهم.

(١) محمد عبد الله الشرقاوي، مدخل نقدي لدراسة الفلسفة، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٩٠، ص٤٢.
(٢) المرجع نفسه، ص ٤٢.
(٣) حربي عباس عطيتومحمود، المرجع السابق، ص ٢٠.
(٤) حربي عباس عطيتومحمود، المرجع السابق، ص ٢٠.

ونصح الشـاب عندما يقوم بأية مهمة أن «يتعلق بأهداب الحق، لا يتخطاه حتى و إن كان التقرير الذي يقدمه لا يسر القلب»[١].

وقـال أيضا: «إذا كنت حاكما تصدر الأوامر للشـعب، فابحـث لنفسك عن حسنة حتى تستمر أوامرك ثابتة لا غبار عليها»[٢].

ومـن خـلال هذا فإن بتاح حوتـب يؤكد أن نيـل المناصب العليا أن تـولى منصب الحكم لا تتأتى إلا بالعلم والسلوك الحسن، لذا فهو يؤكد على ضرورة ضبط النفس من الغرائز والتزام الصمـت و إحقـاق الحق في أي عمل يؤديه بحيث يكون نابعا مـن العقل، كما يأمر ابنه بالقيم الأخلاقيـة الحسنة فلا يفصل بين السياسـة والفضيلة. حتى يحافظ على حكمه أو اسـتمرارية سـلطته وطاعة الشـعب له. بالخضـوع للقوانين كـما يطالب بحسـن معاملة المظلـوم بقوله: «إذا كنت ممن يقدم لهم الشـكاوى، فكن شفيقا حينما تسمع كلام المتظلم، ولا تسيء معاملته إلى أن يغسـل بطنه و إلى أن يقول ما قد جاء من أجله، و إن المتظلم يحب كثيرا أن يهز الإنسان رأسه إلى كلامه إلى أن ينتهي مما جاء من أجله. و إن مجلسا حسنا يسر القلب»[٣].

عـلى الرغـم أن بتاح حوتب دعا إلى إحقاق الحق والشـفقة على المظلـوم، إلا أنه لم يدعو ابنه إلى رفع الظلم ومعاقبة الظالم بل اكتفى بالسماع للشـكوى وهز الرأس للمظالم، فالعدالة لا تتحـدد بحسن المعاملة للأفراد فحسب. مع هذا فإنـه لا يمكن رفض القول بأن بتاح حوتب جعـل الحـق والمعاملة الحسنة أسـاس العـدل. بهذا يظهـر ربط فكـره الأخلاقي بالسياسـة. إذ لا يستقيم الحكم أو السياسة ولا تتحقق العدالة إلا بالقيم الأخلاقية.

ويختم بتاح حوتب نصائحه بقوله: «النظرة العقلية هي أحسن ميراث أتركه لابني»[٤].

كـان بتاح حوتـب يؤمن بإله واحد ففكرة التوحيد انبقثت في مـصر، فالإله الذي آمن به بتـاح حوتـب معروفا باسـم «أوزوريس»الذي كان يتصـف بالأبدية وأنه كان يحمل شـعبه مسؤولية أعماله ويهديهم إلى الطريق القويم الأعلى حيث جنة الخلد.

(١) محمد عبد الله الشرقاوي، المرجع السابق، ص ٤٣.
(٢) محمد عبد الله الشرقاوي، المرجع السابق، ص ٤٣.
(٣) مصطفى النشار، الفكر الفلسفي في مصر القديمة، ص ٦٨.
(٤) محمد عبد الله الشرقاوي، المرجع السابق، ص٤٤.

مـن خلال هذه النصائـح التي وجهها بتاح حوتـب لابنه نلمس دعوتـه للقيم الأخلاقية، والتي كان لها حضور في الفكر المصري القديم وحتى اليوناني وهذا بالتأكيد على قيمة الفضيلة في السلطة بحيث تؤسـس السياسـة على الأخلاق والمعرفة كما إرتأها أفلاطون وأرسـطو وهنا لمـس حضور هـذا الفكر وتأثيره ذلـك أنه جعل من جوهـر الحكمة عنده هو التـزام بالنظام والعدالة «ماعت» ذلك على أسـاس ضبط النفس مع هذا لا نلمس نظرية سياسـية قائمة بذاتها حتى في فكر اخناتون ودعوته إلى التوحيد.

فكرة التوحيد عند اخناتون

لقـد كـان اخناتون(*) «سـليلا لأسرة أحمس الأول مؤسـس الدولة الحديثـة، الأسرة التي حكمـت مـصر أكثر مـن قرنين ونصـف مـن الزمان. تعاقـب على الحكـم خلالهـا اثنا عشر فرعونا»(١).

فهو أحد ملوك العظام في الأسرة الثامنة عشرة التي بدأت حكمها مؤسسة للدولة الحديثة التي يؤرخ لبدايتها بعام١٥٧٥ ق. م حتى عام ٩٤٥ ق.م.

اخناتـون هو الملك والفيلسوف الذي عاش في القرن الرابـع عشر قبل الميلاد كان يسمى امنحوتب الرابع وغير اسـمه ليصبح اخناتون «مكـرس الإله أتون» وقد ترك ميراث للحكمة وقيم الأخلاقية تصلح لكل العصور.

تعتـبر نزعة التوحيد التـي دعا إليها ذات أبعاد دينية أخلاقية واجتماعية فلقد كانت ثورة لم يعـرف لها التاريخ القديم شـبيها بحيث رأى الحق في أن يصور إلهـا واحدا، وهو إله مبدع للحياة، خالق كل شيء مسير الأشياء حسب مشيئته رابط جميع الأقطار والأمم برباط محبته، وقد عبر عن هذا بقوله:

بزوغـك جميل في أفـق السماء يا آتون ياخي يا مبدئ للحياة.
اشراقـك جميل في أفـق السماء أفضت عـلى الأرض بجمالـك.

(١) أخناتون: ظهر حوالي ألف وأربعمائة عام قبل المسيح، كان يلقب بالمنشق العظيم تارة والمجرم العظيم تارة أخرى فالمنشق العظيم لأنه كان أول من انشق على التقليد الذي كان سائدا في مصر القديمة أما عن لقبه المجرم العظيم لهجوم على عقيدة آمون.
(٢) مصطفى النشار، الفكر الفلسفي في مصر القديمة، ص ١٠٠.

ما ذلك إلا لأنك جميل عظيم تبر في السموات العليا.

تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك.

ومهما بعدت فإن أشعتك تغمر الأرض.

مهما علوت فإن آثار قدميك هي النهار.

وإذا ما غربت في أفق السماء الغربي.

خيم على الأرض ظلام كالموت.[١]

إن اعتقاده «بوحدانية الإله وبصورته المجردة التي لا يقلل منها أنها رمز الإله بقرص الشمس لم يأت بالمصادفة، بل بعد تفكير طويل وتأويل عقلي»[٢]. كما أن دعوته إلى عالمية الإله كانت إلى جانب دعوته عالمية الدولة المصرية «وكان الجوهر الرابط بين الدعوتين هو إله الشمس»[٣].

ولم يقتصر فكر اخناتون على هذه الآراء إلهامة حول وحدانية الإله بل كان صاحب فكر أخلاقي اجتماعي سياسي راقي، حيث بنى مدينة جديدة أطلق عليها اسم «اخياتون في كل العمارنة ليعبد فيها الإله الواحد ولتكون الأخلاق السامية والعلاقات الاجتماعية الحميمة هي السائدة من أهلها»[٤].

لقد كان يحلم بأن يحقق أسمى ما يمكن أن يتصوره الإنسان هي دولة عالمية واحدة يسودها الاعتقاد بإله واحد يخضع فيها الجميع لقانون عالمي واحد.

إن الثورة الاخناتونية لم تكن في مجال الإلوهية أو العقيدة الدينية فقط بل كانت ذات أبعاد اجتماعية واسعة، فهذا الموقف الفلسفي الفريد الذي وقفه اخناتون من ديانة عصر كانت له نتائج هامة.

---

(١) حربي عباس عطيتومحمود، الفلسفة القديمة من الفكر الشرقي إلى الفلسفة اليونانية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية(د، ط)، ١٩٩٩، ص ٢٦.

(٢) مصطفى النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، ص ٣٨.

(٣) مصطفى النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، دار القباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣، ص٣٣.

(٤) مصطفى النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، ص ٣٨.

ولعـل أول هذه النتائـج تتجسد في محاولة اخناتـون لإقامة مدينة فاضلـة تكون عاصمة لملكه ومنطلق لفكره الديني الجديد، إذ رسـم معالم مدينته المثالية»الفاضلة» اخياتون لتكون مركز للإشعاع الفكري الديني[١]. لذا اختار لها مكان يتوسط مصر كلها.

وظـل يدعـو رعاياه ومحبيـه في مدينته الفاضلة طـوال ثلاثة عشر عاما كاملة إلى سـلام، والحكم بالعدل. فهذه من الدعائم الأساسية التي كان يطمح إلى تحقيقها لبناء دولة مثالية تقوم عـلى الاعتقاد بالإله الواحد وقانون عالمي واحد، وعلى هذا أخذ اخناتون على عاتقه أن يكون عـلى رأس الدولة ملكا فيلسوفا، عدلا بحق، لذلك «حاول دائما أن يغزو عقول رعاياه بالحجة، والمنطـق لا بالقوة بل بالود والمحبـة. كما ظل يدعو إلى السلام»[٢]. حيث يقول في مناجاة ربه العظيم:

«لك المجد أيها الإله العظيم.

اله الحق والعدل.

لقد استدعيت الأفق أمامك يا سيدي.

حتى أرى بهاءك وأقدم حسابي.

و إني لم أرتكب ضد الناس أي خطيئة.

و إني لم أفعل ما يمقته الإله.

و إني لم أبالغ ضد خادم شر إلى سيده.

و إني لم أترك أحد يتضور جوعا.

ولم أتسبب في بكاء أي إنسان.

إنـــي لم أقتـــل.

ولم اغتصب طعاما من قربان الموتى.

و إني لم أرتكب الزنـا.

(١) مصطفى النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، ص ٣٩.

(٢) مصطفى النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، ص ٣٩.

وإني لم أرتكب خطيئة تدنس نفسي داخل الحرم الطاهر.

ولم تأخذني حدة الغضب.

ولم أكن متكبرا[١]».

من خلال هذه المناجاة نلمس الطهر والأمانة وحب الخير والتزام بإحقاق الحق والمساواة والعدل، هذه القيم التي التزم بها اخناتون وتغني بها لإلهه، كما تظهر واجبات الحاكم العادل اتجاه رعيته هذه المدينة تضم أعضاء الأسرة آدمية واحدة مشتركة في جميع أنحاء العالم. كما نلمس في فلسفة اخناتون وميضا لفكرة للمدينة المثالية التي طمح إلى تحقيقها الفلاسفة فيما بعد كأفلاطون وغيره إذ يقول:

«كم من عجائب تصنعها أيها السيد.

الإله الواحد الحي لجميع الكون.

أنت الأب المحب للناس جميعا

في مصر وسوريا وجميع أقطار الأرض[٢]».

ومن الخصائص التي تميز بها إله اخناتون العمومية في جميع الأقطار مخترع الكون مصدر الحياة، الخير والرحمة، أنه يملك وإليه يرجع كل شيء.

وبهذا يمكن أن نعتبر هذا الملك المصري هو واضع نواة أسمى إدراك للفكر البشري، إله واحد عالم واحد، قانون عالمي واحد، توافق البشر. أن جميع الأفراد حاكم ومحكوم يخضعون لقانون الطبيعي الذي يوحدهم بمبدأ المحبة والإخاء والمساواة.

إن إيمان اخناتون بوحدانية الإله بصورته المجردة هي التي ارتفعت به إلى أتقى صوره وكان هذا نتيجة تفكير طويل وتأويل عقلي سمى فيه اخناتون إلى ما وراء الإدراك المادي هذا التفكير والتأمل هو الذي رفع من شان ديانة المصرية القديمة أو الديانات الشرق القديم كلها قبل هذا التاريخ «يعتبر اخناتون أول من حقق في القرن الرابع عشر ق. م حلم كل الفلاسفة المثاليين في مدينة فاضلة يحكمها الفلاسفة. لقد تحقق الحلم أفلاطون على يد

(١) محمد عبد الله الشرقاوي، المرجع السابق، ص ٤٧.

(٢) حربي عباس عطيتو محمود، المرجع السابق، ص ٢٧.

اخناتون قبل أن يحاول تحقيقه الفيلسوف الصيني كونفشيوس في القرن ٦ ق. م وقبل أن يصبح الفيلسوف إمبراطور على يد ماركوس أوريليوس الفيلسوف الرواقي الروماني في القرن الثاني الميلادي».[١] ذلك لأن اخناتون قام بأول محاولة لخلق ديانة توحيدية في التاريخ ترجع إيجاد الكون وتنظيمه وتوجيهه إلى خالق واحد فقد قام اخناتون بإلغاء ديانة آمون وبشر بالإله الواحد «أتون» إله الشمس الذي اعتبره إله الكون بكامله و إله البشر أجمعين. وخالق الكون وما فيه والمنظم لكل الظواهر الطبيعية والاجتماعية والإنسانية، وعنه تصدر كل المفاهيم والقيم والقوانين وكان اخناتون يقول بسيادة مفاهيم قانونية واحدة في الكون والعالم أجمع بما في ذلك تنظيم عالم البشر وتوجيههم نحو الفضائل الخلقية، كانت هذه المفاهيم عند اخناتون شبيهة بتلك المتعلقة بالقانون الطبيعي التي عرفتها حضارات أخرى مثل الحضارة اليونانية وما بعدها «الهيلنستية-الرومانية»[٢].

خاتمة

رغم قيمة هذه الأفكار الفلسفية للفكر الفرعوني القديم «بتاح حوتب- اخناتون» إلا أنها كانت أفكار ليست بمستوى المذهب الفلسفي بالمعنى الدقيق لكلمة مذهب فهذه التعاليم جاء بها «بتاح حوتب- اخناتون» تبقى دائما تتميز برقيها وسموها الخلقي، كما نلمس تأثيرها فيما بعد على الفكر اليوناني بحيث كانت تعبر عن شعاع الإبداع الخاص بالفكر المصري الذي لم يتحدد في مجال القيم و إنما حتى في العلوم كالرياضيات والفلك. ... والعمارة والتي لازالت أهرمات شاهدة عليه ولكن هذا إبداع الذي لم يكن نتيجة اتباع أو نقل بل جعل الحضارات الأخرى منبهرة به وناقلة عنه ولكن فقد وميضه وشعاع مع الزمن حيث أصبح العالم العربي يتغنى بأطلاله وأمجاده وغير قادرا على خلق إبداع وتحقيق ما حققه في السابق.

(١) مصطفى النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، ص ٤٦.
(٢) مرجع نفسه، فلاسفة أيقظوا العالم، ص ٤٦.

قائمة المصادر والمراجع

١- إمام عبد الفتاح، الأخلاق والسياسة(دراسة في فلسفة الحكم)، المجلس الأعلى للثقافة، مصر(د، ط) ٢٠٠١.

٢- حربي عباس عطيتومحمود، الفلسفة القديمة من الفكر الشرقي إلى الفلسفة اليونانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د. ط، ١٩٩٩.

٣- عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

٤- محمد عبد الله الشرقاوي، مدخل نقدي لدراسة الفلسفة، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٩٠.

٥- محمود سعيد، أحمد أمين، محمد علي القوزمي، النظم السياسية عبر العصور، دار النهضة العربية بيروت ط١، ١٩٩٩.

٦- مصطفى النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي ج١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د، ط)، ١٩٩٨.